

مؤتمرات وندوات علمية

أما تفاعل الإنسان مع البيئة الصحراوية، فقد أثرت فيه وأثر فيها . فنجد بداية الأمر، وخلال العصور الحجرية القديمة، يقيم على ضفاف البحيرات وتجمعات المياه في الصحراء، لكنه مع تغير البيئة لتغير الأحوال المناخية بنى السدود والبرك، ليجمع المياه التي تكفيه بقية أيام السنة . والزائر أو الدارس للصحراء، يجد نفسه محاطاً بكنوز طبيعية من نبات وحيوان ومجموعات بشرية، لها اقتصاد وعبادات وتقاليد وتراث ولهجات وطقوس وعبادات وأديان، تعددت على مر الأيام والدهور. ولمعرفة ما دار في الصحراء: كيف عاش الناس فيها عبر العصور؟ وكيف سُخِّرَ الجمل " سفينة الصحراء " خاصة لقطع الفيافي الصحراوية للاتصال بالمجموعات البشرية المنتشرة في أرجائها ؟ كان إنعقاد ملتقى الصحراء، الذي دعى إليه كرسى بن علي لحوار الحضارات والأديان بجامعة تونس المنار .

عُقدت جلسات المؤتمر في عدة محاور، توزعت على مدى ثلاثة أيام على النحو التالي:

اليوم الأول

خُصصت فترة ما قبل الظهر للافتتاح ولأربع محاضرات، تركّزت حول: "الصحراء ومستقبل الإنسان العربي"، و "المخطوطات ذاكرة الحياة الاجتماعية والثقافية في الصحراء"، "وأثر التقلبات المناخية على الاستيطان في الصحراء"، وأخيراً "أثر البيئة الصحراوية في العلاقات المصرية بجيرانها في شمالي إفريقيا".

وكما نرى، فإن موضوعات المحاضرات جاءت مختلفة ولا يحكمها محور واحد، فمثلاً المحاضرة الأولى بحثت في صورة الصحراء في الفهم العربي، وانعكاس هذا الأمر في اللغة والأدب العربي. وعاب المحاضر على الدول العربية إسقاط الصحراء من خطط التنمية، علماً بأن الاهتمام بالدراسات الصحراوية قد زاد في الوقت الحاضر، لأن الصحارى أصبحت تشكل مصدراً مهماً من مصادر الدخل القومي،

مؤتمر: الصحراء والإنسان:

معرفة لكسب المهارات وحسن التصرف

الجهة المنظمة : كرسى بن علي لحوار الحضارات

والأديان بجامعة تونس المنار.

مكان الانعقاد : مدينة دوز - تونس

تاريخ الانعقاد : ٤-٦ ذو القعدة ١٤٢٤هـ

الموافق: ٢٧-٢٩ ديسمبر ٢٠٠٣

نظّم كرسى بن علي لحوار الحضارات والأديان، نظم مؤتمراً دولياً عنوانه: " الصحراء والإنسان: معرفة لكسب المهارات وحسن التصرف " وذلك في الفترة الواقعة بين ٢٧-٢٩ كانون أول ٢٠٠٣ في مدينة دوز (نزل المرادي) بمنطقة الواحات في الصحراء التونسية. وحضر المؤتمر عدد من العلماء العرب والأجانب لتقديم دراسات ، علّها تكون مفيدة لكسب المهارات وحسن التصرف. وكان لهذا الملتقى بُعدٌ تعريفي واستشراقي، إذ قدّمت فيه مجموعة من الأفكار الجديدة، خاصة في مجال توثيق التراث الصحراوي، شملت المعمار والكتابات والمنقوشات والرسوم .

وكما ذكر الأستاذ الدكتور محمد حسين فنطر في كلمته للمؤتمرين، فإن صحراء تونس هي جزء من الصحراء الكبرى، حيث تتوارى الحياة على الرغم من كثافتها، نباتاً كانت أو حيواناً. وإن الإنسان ما أنفك يتردد أو يقيم في الصحراء منذ العصور الحجرية القديمة، وحتى وقتنا الحاضر . واستطاع الدارسون تعقب ودراسة المخلفات الأثرية، التي تركها لنا هذا الإنسان بأشكال مختلفة. وإذا كانت هذه البقايا لم تخرج عن كونها أدوات حجرية مبعثرة على السطح في بداية الأمر، إلا أنها تطورت إلى بناء المخيمات والقرى والمدن عبر العصور. ومما تركه لنا هذا الإنسان مجموعة من النقوش الكتابية والرسومات الصخرية، تعكس في مجملها طبيعة الحياة اليومية.

من ٢٧-٢٠٠٣/١٢/٣٠م، فقد دُعي المشاركون في المؤتمر في فترة ما بعد الظهر لحضور بعض فعاليات هذا المهرجان. وقد لوحظ وجود مشاركات عربية وأجنبية في فعالياته. فقد كانت هناك فقرات تدل على الثقافات والتراث الصحراوي العالمي، مثال ذلك فقرات حفل زفاف صحراوي، وكيفية استخدام الكلب "السلوقي" في الصين، وغيرها.

اليوم الثاني

عُقد في هذا اليوم أربع جلسات، اثنتان في الصباح ومثلهما في فترة ما بعد الظهر. وقدمت السيدة كاترين ستينو (Katherin Stenu)، ممثلة المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونيسكو)، كلمة تُوّهت فيها بأهمية هذا المؤتمر وضرورة تكراره. وكانت بداية الأبحاث العلمية بحثاً يتحدث عن رمزية العصور (أماكن تجمع البوادي). وذكرت أن الأمم المتحدة أسّمت عام ٢٠٠٤ (عام الصحراء). وأوضحت أن التراث الثقافي غير المادي يغذي العلاقات بين الشعوب، ويمثل النسيج الأساسي الذي بفضل تنشأ المجموعات الجديدة، وكذلك التطورات والرؤى.

وقد نبّه الباحثان حبيب بلهادي (Habib Belhadi) وماريو البرتو زكيني (Mario Alberto Zecchini)، إلى ضرورة ربط الثقافة مع هندسة القصور، وذلك بدراسة النصوص المكتوبة، وكذلك الصور والرسومات. ويعتقد الباحثان أن حياة الناس في منطقة الصحاري ترتبط بالروحانيات، التي يُعبّر عنها برموز نجدها داخل القصور. علماً بأنهما لم يفتلا أن المجتمع، وقبل الكتابة والرسم على جدران الأبنية، تميز بالثقافة الشفوية. وعلى أية فإن المحاور التي تناولها الباحثان ركّزت حول عدة موضوعات هي:

- موضوع الرموز (نباتي أم حيواني).

- أشكال الرموز (منحنٍ أم دائري).

- أهداف الرسالة التي تحملها هذه الرموز (السياسي والديني).

- النقاط المحفورة بأشكال هندسية، مثل المربعات والمستطيلات.

خاصة لوجود البترول والمعادن الثمينة فيها. كما أن كثيراً من الناس خلال الوقت الحاضر أخذوا في الاهتمام بالسياحة الصحراوية. وأكد المحاضر ضرورة إعادة تشكيل الوعي العربي بالصحراء، ووضع سياسة عربية وإفريقية للدراسات الصحراوية.

أما المحاضر الثاني فقد ذكر أن هناك كمّاً هائلاً من المخطوطات، بالخط العربي، تعالج موضوعات عربية خاصة بالصحراء. وهذا يؤكد على دور المخطوطات في توثيق الهوية العربية. ولاحظ أن حماية وصيانة المخطوطات، التي كتبت بخط عربي في بعض البلدان الأفريقية مهمة، أي لم يدرسها أحد. كما عرض لواقع المخطوطات التي كتبت باللغة العربية في البلدان الصحراوية (موريتانيا ومالي والنيجر).

أما الدراسة الثالثة، فعرضت إلى التحولات المناخية والمراحل التي مرت بها. كما قدم الباحث دراسة لصحراء فزان وواحة بركات بليبيا. فربط الاستيطان البشري في واحة فزان بتغير مستوى البحيرات. كما أكد الباحث أن الذين سكنوا واحة بركات عرفوا صناعة الفخار قبل حوالي عشرة آلاف عام. وعرض إلى دراسة الرسومات الحيوانية، التي تدل على أنواع الحيوانات التي كانت تعيش في هذه المنطقة. وذكر أن الناس هناك عرفوا استخدام العربات وزراعة النخيل، قبل حوالي خمسة آلاف عام.

وفي المحاضرة الأخيرة، حاول الباحث تبيان العلاقة، التي كانت تربط الصحراء المصرية الغربية مع تلك الليبية، خلال فترات العصر الحجري الحديث والمصري القديم. واستند المحاضر على عدد من الوثائق الأثرية، منها: الرسومات المنحوتة على صلايات الكحل، التي تمثل أبراجاً وقبائل "تحنو" الليبية وهي منهزمة، وكذلك أسداً يفترس أسداً ربما يكون ليبياً. لكن العداوة لم تكن هي الأساس في العلاقة بين المصريين والليبيين القدماء، فقد كانت هناك تحالفات وصداقات حميمة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، كان هناك ليبيون ضمن الحراس الشخصيين للفرعون المصري إخناتون.

ولما كان هذا المؤتمر الدولي يعقد في الوقت نفسه، الذي تعقد فيه الدورة (٣٦) للمهرجان الدولي للصحراء بمدينة دوز

جميع النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وأما في الجلسة الثانية لفترة ما قبل الظهر، فقد ركزت الأبحاث حول الصحراء في بلاد المغرب، ومحاولة استنباط معلومات مهمة تؤكد أو تحاول إثبات أهمية هذه المنطقة، في تطوير الثقافة والحياة الصحراوية.

وتحدث فيها خمسة محاضرون تناولت أبحاثهم. "استخدام الحصان والعربة عند الطوارق في منطقة الصحراء الجنوبية". وذكر الباحث إدموند بيرنوس (Edmond Bernus) أهمية استخدام هذا الحيوان وسيلة اتصال بين الثقافات والحضارات. كما تناول المحاضر الثاني "الخيمة والبئر كأساس للحياة الصحراوية"، وأكد أن الخيمة كانت المكان الذي تعلمت فيه المجتمعات الصحراوية تعاليم الإسلام. أما المحاضر الثالث، فكان الدكتور أحمد سراج، الذي أوضح في محاضراته أن المنطقة الصحراوية أعطت القبائل العربية المنتشرة فيها فضاء واسعاً، استفادوا منه في التعبير عما كان يجول في خواتمهم وعقولهم. كما تحدث عن العلاقات، التي تطورت بين القبائل العربية المسلمة في الشمال، وتلك الأخرى في منطقة الجنوب، وتمثل هذا في إنشاء المراكز التجارية التي كانت واقعة على حدود المغرب الجنوبية. ويعتقد الباحث أن هذه العلاقات قد تطورت بشكل تدريجي بمرور الأيام.

كما قدم في هذه الجلسة الدكتور كرم كمال الدين الصاوي، بحثاً عنوانه: "نظم التجارة الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان في الفترة من القرن الثامن إلى القرن العاشر هجري (١٤-١٦)". وأكد الباحث أن الصحراء لم تكن تمثل في يوم من الأيام حاجزاً بين اتصال المجموعات البشرية مع بعضها، بل يؤكد أنها ظلت في الفترة الواقعة بين ١١٠٠-١٥٠٠م منطقة عبور نشطة. وتعد هذه الفترة العصر الذهبي للحركة التجارية، خاصة تجارة الذهب بين منطقة السودان الغربي على طول الطرق التجارية الصحراوية. وركز الباحث في دراسته على عدة نقاط، أهمها:

١ . الطرق التجارية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي.

٢ . المراكز والمحطات التجارية.

- الحساب: فنجد الخطوط الدائرية والمستقيمة، التي يعتقد الباحثان إمكانية اعتمادها لتعداد أصحاب القبيلة وعبيدهم، وكذلك الاستدلال على طرق القوافل التجارية الصحراوية.

كما اهتم الباحثان بالأرقام، مثل الرقم (٣)، الذي يرمز للماضي والحاضر والمستقبل، وكذلك إلى الميلاد والعيش والموت. ويعتقدان أن التثليث مرتبط بالثقافة البربرية.

بعدها تحدث الأستاذ الأسباني خوزيه - ماريلا بلازكيز مارتينيز (Jose-Maria Blazquez Martinez) عن "العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين منطقة شمالي أفريقيا وخاصة موريتانيا مع الدول التي كانت موجودة على شاطئ البحر المتوسط الشمالية"، فلقد تاجر أهالي الصحراء المغربية بشكل خاص بالملح والعبيد.

أما الدكتور ماهر عطية شعبان، فقد تحدث عن " دور قوافل الصحراء في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في السودان الأوسط خلال القرن التاسع عشر". وبعد أن حدد المحاضر ما المقصود بالسودان جغرافياً، ذكر أن هذه المنطقة التي تضم النيجر ونيجيريا والكاميرون وأفريقيا الوسطى وتشاد وغرب السودان، لا يزال يكتنفها الغموض، إذ لم يتناولها الدارسون بالبحث إلا في السنوات الأخيرة. علماً أن هذه المنطقة الصحراوية كانت عامل اتصال وسبباً في زيادة الوعي ونشر الدين الإسلامي. وركز الباحث في دراسته هذه على ثلاثة محاور، هي:

١ . دور القبائل المنتشرة في الواحات بمنطقة الصحراء في نشر الإسلام.

٢ . قوافل التجار والرحالة والمهاجرون والدعاة، ودورهم في نشر الإسلام في منطقة السودان الأوسط.

٣ . دراسة أهم الطرق التجارية والتبشيرية بين شمالي القارة الإفريقية وأواسطها.

٤ . دور القوافل التجارية في توثيق الصلات بين المغرب العربي والسودان الأوسط.

٥ . مظاهر التأثير الإسلامي في منطقة أوسط إفريقيا من

القارة الأفريقية. وقد استعرض الباحث فيها جغرافية البادية الأردنية وأهم النشاطات الميدانية، التي أجريت فيها، وطبيعة الاستيطان البشري والعمارة والفنون وطرق المعيشة. واستتب معلومات من خلال دراسته للتقارير والأبحاث المنشورة حول نتائج الحفريات الأثرية، التي أجريت في هذه المنطقة.

اليوم الثالث

كان هذا هو اليوم الختامي لأعمال المؤتمر، وتضمن عدة أبحاث، وزعت جميعها على فترة ما قبل الظهر. تحدث فيها السيد رضا بوكراع حول: "السياحة الصحراوية كرابطة بين الحضارات وضمان للتنمية المستدامة"، بين فيها أن ربط السياحة بالتنمية المستدامة يمثل منعرجاً ينقل التفكير السياحي الأناني والوظيفي، الذي لا يرى في السياحة إلاّ مضخة للأموال، وبين ضرورة وجود نظرة أكثر عقلانية تشترط أساساً خصائص الاستدامة، التي تقتضي المحافظة على الموروث الطبيعي، وإثراء وإنماء المخزون الثقافي. وأضاف الباحث أن السياحة الثقافية تتنافى مع علاقة الهيمنة والغزو، وتبني على الحوار بين الثقافات والثقة المتبادلة بين الغرب والبلدان المستقبلية للسواح.

وقدم الدكتور أحمد الطويلي مداخلة بعنوان: "الصحراء في كتب الرحالة" استعرض من خلالها أهم ما كتبه المؤرخون العرب، خاصة كتاب (رحلة الصحراء الكبرى) للكاتب السوري صادق العظم الذي كتبه عام ١٨٤٠م، وصف فيه الصحراء وطبيعتها وأهلها وحيواناتها، وعلاقة سكانها بالنخيل والمخاطر التي يواجهونها.

وعلى المنوال نفسه، قدمت السيدة عليا برناز بكار محاضرة عنوانها: "اكتشاف الصحراء مع ابن بطوطة"، أشارت فيها إلى تنقلات هذا الرحالة في عدة أماكن من الصحراء، واكتشافه طريقة عيش الرحّل وعاداتهم وتقاليدهم، وإعجابه بجمال هذا الفضاء الصحراوي على الرغم من صعوبة العيش فيه.

وفي محاضرة أخرى بعنوان: "الصحراء هي موطن كل إنسان" تحدثت الأديبة الفرنسية كاترين سطلول سايمون (Catherine Stoll-Simon) عن العديد من الأدباء الغربيين في

٣ . الميزان الاقتصادي، وهل كان يميل لصالح التجار العرب أم لتجار السودان الغربي؟

٤ . العائلات العربية المشتغلة بالتجارة، ودورها في ازدهار المحطات التجارية.

أما بعد الظهر، فتحدث ستة من المشاركين في المؤتمر توزعت محاضراتهم على جلستين، ثلاثة في كل جلسة. تركزت أبحاث الجلسة الأولى حول الرسومات النقشيه بشكل خاص، إذ ركز السيد كرستان ديبوي (Christian Dupuy) دراسته على: "الرسومات الصخرية في عصور ما قبل التاريخ في منطقة الصحراء". وقد طرح المحاضر مجموعة من الأسئلة، وحاول الإجابة عليها، مثل: إلى أي فترة تعود هذه الرسومات؟ وما نوع الأصباغ التي استخدمت في رسم بعض الأشكال؟ وما الدافع الذي دفع الفنان إلى رسم مثل هذه الرسوم؟ وما طبيعة المجتمع الذي ينتمي إليه هذا الفنان؟ وتبع ذلك محاضرة أخرى للسيدة زهرة شريف، تناولت: "النخلة والجريد كعناصر زخرفية قرطاجية". واعتمدت الباحثة في دراستها على الوصف والمقابلة لأشكال النخيل.

أما الموضوعات التي بحثت في الجلسة الثانية لفترة ما بعد الظهر لهذا اليوم، فشملت ثلاثة موضوعات مختلفة، الأول مقدم من الدكتورة عفرأ علي الخطيب وعنوانه: "الأشكال الأدمية التخطيطية بين الصحراء الكبرى والجزيرة العربية في العصور القديمة".

واستخدمت فيه المحاضرة الرسومات والنقوش الصخرية التي عثر عليها في صحراء الجزيرة العربية، وحاولت مطابقتها مع ما عثر عليه من أشكال مماثلة في الصحراء الأفريقية.

وطرحت المحاضرة مجموعة من التساؤلات حول نشأة أساليب التصوير في كل منطقة، وهل كان تطور الأشكال الأدمية التخطيطية المرسومة أو المنقوشة على الصخر، هو الأساس في ظهور أولى الكتابات التصويرية؟

وجاءت محاضرة الدكتور زيدان كفاقي، التي عنوانها: "أثر الإنسان على البادية في الأردن خلال العصور القديمة"، مختلفة عما سبقها إذ إنها تدرس منطقة صحراوية خارج

هذه المنطقة. كما إنه جعل اللغة العربية لغة الثقافة والفكر، في مختلف أرجاء الصحراء.

طرح المؤتمر قضايا تخص الصحراء، ولكنها جاءت متركزة على الصحراء الكبرى بإفريقيا، سوى ورقتين تحدثتا عن بادية الشام وصحراء الجزيرة العربية. كذلك، فإنني أود أن اقترح على المنظمين ما يلي:

١ . دعوة هيئات ومؤسسات عالمية تعنى بالدراسات الصحراوية خارج القارة الأفريقية، مثل: معهد الدراسات الصحراوية في ريو في نيفادا بالولايات المتحدة الأمريكية.

٢ . ضرورة توزيع أوراق البحث تحت محاور متخصصة، كأن تتناول الصحراء في أبحاث جلسة واحدة، وهكذا.

وقد نجح القائمون على هذا المؤتمر في جمع ثلة من العلماء العرب والأجانب، تناولوا في محاضراتهم ومدخلاتهم الصحراء ذاكرة الإنسان وذاكرة الأرض، كما أبرزوا مختلف الأوجه التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للحياة في الصحراء، خاصة من خلال أبحاثهم الميدانية واطلاعهم على الكتابات الأدبية وكتب الرحلات. ونحن نشدد على ما ذكره أ.

د. محمد منظر، رئيس اللجنة المنظمة لهذا المؤتمر، أنه يجب أن تتحول الأقوال إلى أفعال، وإلا فإن ما قيل في المؤتمر سيبقى حبراً على ورق. وهذه دعوة للمسؤولين والمختصين للإطلاع على ما طرح في المؤتمر من مسائل.

القرن التاسع عشر وولعهم بالصحراء، واستقرار بعضهم في هذه المنطقة لمدة طويلة. كما بينت المحاضرة أن العديد من المؤلفات، التي كتبها أدباء أوروبيون معرفون، مثل إزابيل ابهارت، والبير كامو، وسان اكزوبيري، مستوحاة من البيئة الصحراوية، ومن تجارب العديد من المبدعين أثناء رحلاتهم في صحراء تونس والجزائر وإفريقيا السوداء.

كذلك، قدمت السيدة ماري - آن زوغي - كايم (Marie-Anne Zouaghi-Keime) عرضاً حول تجربة الكاتب الفرنسي "في دومو باسون"، تطرقت فيه إلى الصحراء في خيال دوموباسون، الذي برز في عدة كتب، منها: (الشمس) و(الحياة التائهة)، وذلك أثناء رحلاته العديدة إلى صحراء الجزائر وأفريقيا السوداء وتونس.

ومن الأبحاث المهمة التي أقيمت في هذا المؤتمر، ما قدمه الدكتور عبدالله عبدالرزاق ابراهيم حول: "دور قبائل الفولاني في نشر الإسلام وحضارته في الصحراء الكبرى في القرن التاسع عشر". ويبيّن في محاضراته أن الصحراء كانت عاملاً مهماً في الاتصالات الحضارية، وساعدت كثيراً على نشر تعاليم الإسلام الصحيحة خلال القرن التاسع عشر، كما لعبت دوراً حيوياً في الاتصالات التجارية، بين شعوب المنطقة وقبائلها.

وأشار إلى أن من بين هذه القبائل قبيلة " الفلاني، " التي كان لها نصيب وافر في هذا المجال. ويرى أن جهاد الشيخ عثمان بن فودي في شمالي نيجيريا، وتنقله من مكان لآخر في مدن الصحراء، كان له الأثر الكبير في قيام دولة إسلامية في

أ.د. زيدان عبدالكافي كفاي - كلية الآثار والأنثروبولوجيا - جامعة اليرموك - اربد - الأردن